بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في هذا الكتاب صورة للظاهرة الإنسانية والعلمية التي تجلت للعالم الإسلامي على رأس المائة الثانية للهجرة: محمد بن إدريس الشافعي.

وهو متابعة لدراسات بدأت والحروب العالمية الثانية تدور، وجيوش العدو تحتل الوطن العربي، والمسلمون يتداعون إلى الخطة المثلى بالرجوع إلى ينابيعهم الحقيقية في مفاخر الإسلام.

وكان البدء "أبي حنيفة بطل الحرية والتسامح" بادرة صالحة. تفضل بعدها عميد الأدب العربي الأستاذ الدكتور طه حسين، في تعليق له، فدعا المؤلف ليتفرغ لدرس الشافعي، لما له من صلة بمصر. والحق أن كثيرا من جذاذات الكتاب الحالي قد أعدت منذئذ، لكن صوارف العمل العام أخرت تأليفه حتى قدر له الظهور في ميعاده.

وفي هذه الأثناء جرت إرادة السماء بتطور عظيم لحساب الأمة الإسلامية يؤذن بازدهار الأمل. كانت الدول العربية بضع دول، فأصبحت بضع عشرة. وكان تعداد الدول الإسلامية المستقلة عشرات الملايين، فأضحى مئات الملايين. وفي طريق الاستقلال ملايين أخرى. وكانت الشعوب العربية أشتاتا، فأصبحت جميعا. تتنادى بالوحدة. وكانت اللغات الأجنبية تزحم اللسان العربي في معاقله، فخلص اللسان العربي لذويه، وأمسى لغة رسمية تدور حول الأرض في المؤتمر العالمية.

ومن اللغة العربية، والعروبة، ومن أصول السلام في الكتاب والسنة، تتألف في نفس الإمام الشافعي، وشخصه، وفقهه.

والشافعي لا يتقدم لقرائه كأبي حنيفة في موكب الأمل وحده، ولكنه يتقدم في مواكب النصر الذي لاحت بشائره.

ولم يكن مصادفة، أن نجد نصف القرن الذي دوي فيه صوته، أزهى عصور الأمة الإسلامية بعد أيام النبوة. وأن يشمل الازدهار وجوه الحضارة كافة، علمية كانت أو سياسية أو دنيوية. فالإسلام يفرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، ليفضوا مغالق الطبيعة، ويكونوا طلائع التقدم، فصنعوا، وسلموا أوربة. كشوفهم في عشرة قرون معدومة القرين. فكانت أسسا للحضارة العالمية المعاصرة.

وتلاقت في نصف القرن العظيم أسماء أو أشخاص أئمة الفقه الأربعة والرواد العالميين في الرياضيات العالية والعلوم الطبيعية، جابر بن حيان والخوارزمي والكندي، يغشون بلاطا يمسك بكرة الأرض. يتألف فيه الرشيد وهو عالم وشاعر، وابنه المأمون وهو فقيه وفيلسوف، في حين كان شارلمان (إمبراطور أوربة) أميا لا يقرأ ولا يكتب! فحضارة الإسلام كينبوعها في الكتاب والسنة حضارة إنسانية وفكرية – أما الحضارة الأخرى فأصولها في الوثنية الرومانية والإغريقية، تتغيا بلوغ القوة المادية في الحياة الدنيا.

وللتاريخ العالمي لغة فصحى لإظهار الحقائق. بتكرار الوقائع واطراد النتائج. ومنها أن الأمة الإسلامية كلما أظلتها وحدة صنعت معجزة. وكمثلها الأمة النواة لها "أمة العرب". انتصرت جيوشها على الصليبيين مجتمعين في حطين سنة ١١٨٧، ولم تمض بضع عشرات من السنين حتى صدت جيوش أروبة من الغرب سنة ١٢٥٠، وردت جيوش التتار من الشرق في سنة

١٢٦٠! فحمت نصفي كرة الأرض، في سنوات عشر! وصدق الله قوله ووعده. أظهر الإسلام على الدين كله، وجعل المسلمين خير أمة أخرجت للناس، وإنما هي خير الأمم بشريعتها.

***

وكان من فضل الله عليها أن وهبها محمد بن إدريس الشافعي، وجمع في شخصه خصائص البطولة العربية، وفي فقهه مراكز القوة التي ينطلق منها المسلمون فيبدءون منتصرين.. وهي القرآن والسنة واللغة العربية والعروبة ووحدة الفكر.

والكتابة عنه تعلق بأسباب الانتصار. وناهيك به إماما. ذرى الدنيا بدايات خطوه. والقيم العليا أبجديات فكره. وليدا، وتلميذا، وأستاذا، وإماما. حتى إذا بلغ مبلغه وضع الميزان العلمي للأمة. فبايعته على أنه "ناصر السنة" الذي تتمثل في فقهه أصول الإسلام. وكبرى خصائص العرب.

وفي هذا الكتاب مزاوجة بين ألوان حاولنا أن نرسم بها صورة تقريبية لبطل. ودعوة لدراسات جديدة. في هذا العالم المترامي الأطراف من شخصية الإمام الشافعي وفقهه ولغته.